**المحاضرة 11: الفضاءات الثقافية الجهوية الكبرى**

* **مقدمة**:

تعبّر الفضاءات الثقافية عن التمركز الحضاري والثقافي التي تعرفها الشعوب والأمم ضمن نطاقات جغرافية متمايزة، ومتجاورة، وكذلك هي الحضارات التي عرفتها البشرية ولا تزال، ومن وجهة النظر الأنتروبولوجية فإن هذه الحضارات هي نماذج ثقافية يرتقي فيها الإنسان ضمن سياقات تاريخية محددة.

وإذا أردنا أن نصنف هذه الفضاءات الثقافية، فنجد أن هناك عوامل تعمل على تحديدها: كعامل اللغة، والجغرافيا، والعادات والتقاليد، والعرق، والتبادلات الثقافية والتجارية، وغيرها من المحددات الثقافية والاجتماعية.

وتظهر الفضاءات الثقافية اليوم في وقتنا المعاصر من خلال ثقافة المجتمعات والأمم المعاصرة التي لم تكن وليدة لفترة زمنية قصيرة أو راهنة، بل هي نتاج لتراكم ثقافي وحضاري ضمن امتداد تاريخي موغل في القدم، حيث صقلتها محطات تاريخية بارزة في البناء الاجتماعي والثقافي والذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ.

وبفعل جملة من الاعتبارات التاريخية، فإن هذه الفضاءات الكبرى لم تكن كيانات اجتماعية منقسمة إلى دوّل مستقلة وقائمة بذاتها، حيث أن الفصل بين المجتمعات لم يكن يحكمه منطق الحدود السياسية الحالية، بل كان يخضع لقانون طبيعي هو من قبيل تمدد وتقلص الوعاء البشري ضمن منطقة جغرافية معينة.

1. **فضاءات ثقافية منصهرة ومتمايزة:**

تخضع هذه الفضاءات الثقافية الكبرى إلى بناء اجتماعي متقارب ويتشابه إلى حد كبير، حيث تتميّز بخصائص ثقافية تكاد تكون واحدة ضمن نطاقها الجغرافي الواحد، وهنا يمكن القول أن ثقافة هذه المجتمعات إنما هي ثمرة لتمازج مجموعة من الروافد الثقافية على مرّ الأزمنة الطويلة والمتعاقبة تنصهر في بوتقة واحدة من خلال عاملي التراكم والانصهار.

ويظهر هذا الامتزاج والانصهار الثقافي من خلال مراحل تاريخية طويلة ومتتابعة تعمل على تشكيل معالم الثقافة الواحدة، وهو ما يعرف أنتروبولوجيا بالتثاقف- L'acculturation، حيث يعبر هذا المصطلح عن آثار التماس الثقافي بين الأفراد والجماعات.

ويوضح التثاقف عملية التحول الثقافي والسيكولوجي الذي ينتج عن الإلقاء المتتابع بين الثقافات، ويمكن إدراك تأثيرات التثاقف على مستويات متعددة في الثقافات المتجازية فعلى مستوى المجموعة البشرية الواحدة، فإن التثاقف غالبا ما يفضي إلى تحولات في الثقافة والعادات والمؤسسات المجتمعية، ومن التحولات الجديدة بالملاحظة على مستوى المجموعة البشرية، نجد تحولات تشمل الأطعمة والملابس بل حتى اللغة([[1]](#footnote-1))، أما على مستوى المناطق الثقافية المتجاورة، فيكون للاتصال الثقافي والتبادل التجاري دورا بارزا في إحداث الدينامية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية داخل الفضاء الثقافي الواحد، ويصبح هناك مع مرور الوقت تشابها في البناء الاجتماعي والثقافي، وتقاربا في العادات والتقاليد والموروث الثقافي، والتبادل الحيوي ضمن عدّة مجالات.

ويتقارب علماء الأنتروبولوجيا في تحديدهم لمفهوم الثقافة، حيث يذهب كابلان إلى أن أساس هذا المفهوم المشترك، هو الاتفاق على أن الثقافة تتكون من تقاليد وعناصر تراثية منمّطة ومتداخلة مع بعضها البعض، وأنها انتقلت عبر الزمان والمكان من خلال آليات غير بيولوجية، كما تشير الثقافة إلى وجود وحدة سكانية مستقلة تتميز بوجود خصائص ثقافية وتقاليد مشتركة، بالرغم من صعوبة تحديد هذه الوحدات السكانية، والعلاقات الهامة التي تتقاطع مع هذه الحدود، بالإضافة إلى نسق القيم والأفكار، وألوان السلوك التي يمكن أن ترتبط بجماعة أو أكثر من الجماعات الاجتماعية أو القومية مثل "ثقافة الأمريكان السود" مثلا، "الثقافة الغربية، وغيرها.([[2]](#footnote-2))

1. **الفضاء الثقافي للشرق الأدنى:**

الشرق الأدنى هو مهد الحضارات القديمة، الصينية والهدية والفارسية، حيث كان لهذه الحضارات التأثير البالغ في التاريخ الإنساني، وصولا إلى العصر الحالي، حيث يبرز دور آسيا مجددا على الساحة العالمية، فالآسيويون يواصلون اكتشاف ماضيهم الحافل، ويستمدون الإلهام من الماضي، ويبرز بشكل متزايد انفجار هائل في التكيّف الإبداعي في جميع أنحاء آسيا حيث يمكن ربط جذور الحضارة في شرق آسيا بنفوذ الأديان وازدهار الفلسفات الشرقية التي كان لها الدور البارز في بناء ثقافات وحضارات هذه الشعوب الأسيوية.

تقع منطقة جنوب شرق آسيا بين شرق القارة وجنوبها، وهي الملتقى الذي تمتزج فيه كل الديانات والثقافات الكبرى في العالم، وتحت تأثير التبادلات التجارية والرحلات، وتطورت ثقافات جنوب شرق آسيا، وتعايشت الجماعات العرقية والدينية، وتجاوزت الحضارات والمدنيات الكبرى، ويعتبر التوافق ما بين المعتقدات طريقة حياة في منطقة جنوب شرق آسيا، حيث يعد التراث الديني الآسيوي عنصرا مهما في توحيد آسيا حضاريا وإن اختلفت الثقافات من حيّز جغرافي إلى آخر، وكان وصول الإسلام عن طريق التجارة والرحلات إضافة جديدة لروح هذه الثقافات، وانتشر واسعا في الهند وجنوب الصين وإيران وظهرت دول إسلامية مع بروز العصر الحديث كاندونيسيا وماليزيا وباكستان وغيرها...

وتعد الدراسات الاستشراقية الحاضنة الأولى للدراسات الأنتروبولوجية المتعلقة بالشرق الأدنى والأوسط، حيث انبثقت أنتروبولوجيا الشرق من رحم هذه الدراسات، والتي كان غرضها فهم الاختلافات الثقافية ميدانيا، وإرساء جسر مفاهيمي بين الثقافات والذاكرات والتواريخ والهويات المتنوعة، كما أبرزت هذه الدراسات بنية العلاقات الاجتماعية في دول الشرق المتمحورة حول القرابة، فهناك عامل قوي في تحديد الهوية يدور حول النسب والقرابة يطغى في عمق هذه الثقافات، فقد لفتت صلة القرابة المتينة أنظار الأنتروبولوجيين وبدت شكلا من أشكال الترابط غير العادي، ما قاد إلى تناول موضوع الزواج وآثاره الاجتماعية والاقتصادية، لكن ذلك الطابع "المنغلق" للعلاقات كما يلاحظ الأنتروبولوجي الايطالي فاييتي، بدأ يتسرب إليه الانحلال في الحواضر الكبرى، وإن حافظ على ظهوره في القرى والأرياف.([[3]](#footnote-3))

1. **()**- سمير خليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية، والنقد الثقافي –إضاءة توثيقية للمفاهيم، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016، ص270. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- شارلوت سيمون: موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص245-246. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- عز الدين عناية: أنتروبولوجيو الشرق، شبكة النبع المعلوماتيةannabaa.arg-، تاريخ الاطلاع 20 سبتمبر 2019. [↑](#footnote-ref-3)